Al-Dirasat Al-Islamiyyah (Islamabad) 38:3 (2003)

شعر اللحظات الأولى في بداية البعثة الإسلامية

مخمير صالح

ملخّص:

يتناول هذا البحث شعر اللحظات الأولى في بداية البعثة الإسلامية، ويتمثّل هذا الشعر، في تأملات الشعراء، وتفكيرهم في آلهتهم الجاهلية، البكماء، الصمّاء الجامدة، ومقارنين ذلك مع الإله الخالق، مصوّرين ما دار في نفوسهم من صراع، وحيرة واندهاش، ومصوّرين كذلك قصة إسلامهم وما أحسوا به من فرح وسرور عندما دخلوا في الإسلام. ومعبّرين كذلك في هذا الشعر عن أحاسيس الندم على أفعالهم في الجاهلية وعن رغبتهم الصادقة في التوبة والغفران.

تشكّل هذه الدراسة، المحاولة الثالثة[1] للباحث، التي تهتم بدراسة الشعر الإسلامي وفق التصور الإسلامي للشعر، وتركّز على شعر اللحظات الأولى الذي صوَّر أحاسيس أصحابه أثناء رحلتهم العقلية والقلبية لاستكشاف حقيقة الدين الحنيف، وجوهره الذي يقوم على فكرة التوحيد. فهي لا تتناول الشعر الإسلامي في فترة استقرار الدين الإسلامي. وقيام دولة الإسلام، كشعر الغزوات وشعر الفتوحات، والرثاء، والمدح، والمناقضات. وإنما تتناول كما ذكرنا، ذلك الشعر الذي عبَّر أصحابه عمَّا دار في خلدهم وهم يعيشون لحظات الإيمان الأولى، مندهشين أمام الدين الإسلامي تارة، ومفكرين بعقولهم تارة أخرى، أو حيارى، أو حاسمين حيرتهم بإعلان إسلامهم، أو تائبين نادمين.

ولم تتكون هذه المواقف التي مرّ بها الشعراء المسلمون دفعة واحدة، أو بشكل مفاجئ في زمن البعثة فقط، بل كانت هناك إرهاصات متنوعة مرّ بها الإنسان الجاهلي كذلك. ولكنها بقيت كالصوت الخافت الذي يسمعه الجاهليُّ ثم يختفي بسرعة. وهنالك أمثلة لمواقف لها دلالات كبيرة تشير إلى مرور الإنسان الجاهلي بحالة بسيطة من التأمل يجعله يعيد النظر بصنمه الإله، أو يحتج عليه، أو

© Dr Muhammad Hamidullah Library, IIU, Islamabad. http://iri.iiu.edu.pk/

يكسره. فمنها ما يروى عن رجل من هوازن قُتل أبوه فأراد الطلب بثأره، وكعادة الجاهليين أتى صنمه "ذو الخلصة" فاستقسم عنده بالأزلام فخرج السهم ينهاه عن ذلك فقال متحديا صنمه ومحتجاً عليه، ومتهماً إياه بالتزوير:

لـو كنت يا ذا الخلص المـوتورا مثلـي وكان شيخـك المقبـورا

لم تنه عن قتل العـداة زورا[٢]

وهذه الحادثة تُروَى نثرا بصوره أوضح عن امرئ القيس بن حجر عندما همّ بالغارة على بني أسد لقتلهم أباه فمرّ "بذي الخلصة" فاستقسم عنده فخرج "الناهي" فكسر القداح، وضرب بها وجه الصنم وقال مسفّهاً صنمه: "عضضت .... لو كان أبوك قتل ما عوّقتني" ثم غزا بني أسد فظفر بهم.[٣] إن موقف امرئ القيس وسابقه يشيران إلى مستويات متواضعة من عدم التسليم بصفات الآلهة التي كان الجاهليون يضفونها عليها، لكنها لم تشكل ظاهرة بارزة عامة وقت ذاك. ومثل ذلك ما روي عن رجل من كنانة أقبل على صنم قبيلته في ناحية جُدّة وكان الصنم يدعى بـ "سعد" فأوقف الرجل إبله ليتبرّك بذلك فيها، فلما أدناها، نفرت منه ـ وكان يهرق عليه الدماء ـ فذهبت في كل وجه، ونفرت عليه فأسف فتناول حجراً فرماه به وقال: لا بارك الله فيك إلها، أنفرت عليَّ إبلي، وقال شعراً في ذلك:

أتينـا إلـى سعد ليجمع شملنـا فشتتنـا سعـد فلا نحن من سعـد

وهل سعد إلا صخـرة بتنوفـةٍ من الأرض لا يدعى لغيّ ولا رشد[٤]

فالموقف السابق أوصل الشاعر إلى إدراك حقيقة صنمه الذي لا يضلُّ ولا يهدي، ومثله ما حدث مع جعفر بن أبي خلاس الكلبي عندما خرج على ناقته ليزور صنمه "سُعير" فمرت به وقد عثرت عنزة عنده، فنفرت ناقته منه فأنشأ يقول:

نفرت قلوصي من عثائر صرعت حـول السعير تـزوره ابنا يقدُم

وجمـوع يذكر مهطعين جنـابة مـا إن يحيـر إليهـم بتكلـم[٥]

وإذا كانت المواقف السابقة لم تؤد بأصحابها إلى ترك دين الآباء والأجداد بالرغم من شكهم بأصنامهم، فإن الموقف الذي مرّ به عدي بن حاتم جعله يترك عبادة صنمه وعبادة الأصنام ويتنصر حتى جاء الإسلام فأسلم. حدث هذا عندما تمرّد مالك بن كلثوم على صنمه "فلس" وأبى أن يأخذ برأي سادن الصنم ويجعل ناقة جارته التي نفرت عنزة لذلك الصنم فرفع السّادن ودعا على مالك موجهاً كلامه إلى الصنم ومحرِّضاً له عليه بقوله[٦]:

يـا رب إن مـالك بن كلثـوم أخفرك اليوم بناب علكـوم

وكنت قبل اليوم غير مغشوم

وكان عدي بن حاتم قد عثر عند الصنم، وجلس هو ونفر معه يتحدثون بما صنع مالك وفزع لذلك عدي بن حاتم وقال: انظروا ما يصيبه في يومه هذا، فمضت له أيام لم يصبه شيء فرفض عدي عبادته وعبادة الأصنام .... وحرصنا على إيراد تلك الأمثلة لدلالتها الكبيرة على أن بعض الجاهليين كانوا يمرّون في بعض اللحظات بحالة شك بآلهتهم ولكنهم لم يشهدوا صراعاً فكرياً مثلما حصل معهم عندما جاء الإسلام، فأحدث صراعاً فكرياً عميقاً في نفوسهم.

وأوّل ما عبَّر عنه الشعراء المسلمون في بداية البعثة هو ما يمكن أن نُسمّيه "بالرجَّة العقلية" التي أحدثها الإسلام في تفكيرهم "حيث وجَّه القرآن الكريم القلوب والعقول، إلى بدائع هذا الكون، وإلى خفايا النفس البشرية"(٧) فوقفوا أمام أصنامهم التي يعبدونها ويعظّمونها متأمّلين. وكان من أثر ذلك كلّه أن أعلن كثير منهم نبذهم لتلك الأصنام الآلهة، معلنين في الوقت نفسه إيمانهم بالإله الواحد الأحد. الذي كانوا قد جعلوا له أنداداً وشركاء. "حتى إن سدنة تلك الآلهة والذين يفترض فيهم - باعتبارهم يتولّون رعاية شؤون الآلهة - أن يكونوا أكثر تمسكاً واعتقاداً بها من غيرهم"(٨) كانوا أسرع الناس تركاً لتلك الآلهة، فهذا خزاعي بن عبد نُهم المزني يذهب كعادته ليذبح عند صنمه "نُهم" غير أنه في هذه المرة يستغرق في التأمل ويراجع نفسه وينظر إلى صنمه ببصيرته لا ببصره، ويقوده ذلك إلى ترك صنمه واعتناق الدين الجديد الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم، يقول:

ذهبت إلى نُهم لأذبح عنده ... عتيرة نُسك كالذي كنتُ أفعلُ

فقلت لنفسي حين راجعت عقلها ... أهذا إله أبكم ليس يعقلُ

أبيْتُ فديني اليوم دين محمد ... إله السمَّاء الماجدُ المتفضلُ(٩)

ويكشف البيت الثاني بجلاء ذلك الحوار الداخلي الذي أداره "خزاعي" في نفسه التي آمنت دون تفكير بدين الآباء والأجداد، وبين عقله الذي فكر وأقام تساؤلا مهمًّا، أوصله بالتالي إلى نتيجة عظيمة. وتساؤل خزاعي هذا، هو تساؤل راشد بن عبد ربّه، لكنَّ راشد عبَّر عن ذلك بصورة ساخرة من صنمه عندما وجده في أحد الأيام وقد بال عليه ثعلب من الثعالب وفي ذلك يقول:

أربٌّ يبول الثُّعلبان برأسه ... لقد ذلَّ من بالت عليه الثَّعالب(١٠)

فالاستفهام الإنكاري في الشطر الأول لا يشير إلى استنكار الشاعر فقط، بل إلى اندهاشه واستغرابه أيضاً من الحال الذي كان عليها الشاعر والكثيرون من أمثاله من الجاهليين.

أما عمر بن الجموح، فرأى صنمه في يوم من الأيام قرينا لكلب في بئر، بعد أن عبث به الصبية وربطوه مع كلب وألقوه في البئر. وفجَّر هذا المشهد في نفسه وقلبه وعقله قناعة تامة بترك هذا الصنم المعبود، والإيمان برب الوجود وفي ذلك يقول:

واللّه لـو كنت إلها لـم تكـن أنت وكلب وسط بئر في رهن

أفٍّ لملقـاكَ إلهـا مستـــدنْ الآن فتّشناك عن سوء الغبن

الحمد للّه العليّ ذي المـنـن الواهب الرزّاق ديّان الدين[١١]

أما طفيل بن عمرو الدوسي، فقد أوصله إلى حقيقة الإيمان تساؤل لا بدَّ أنه دار في نفسه حول أقدمية الوجود بالنسبة له ولصنمه الذي يمكن أن يكون صنعه بيديه من عجوة أو خشب أو حجارة، كما جرت العادة عند العرب. يقول:

ياذا الكفين لستُ من عبادكا ميـلادُنا أقـدم مـن ميـلادكـا

إنّي حَشَوْتُ النار في فؤادكا[١٢]

و واضح أن تفكير طفيل هذا كان أعمق من تفكير الشاعرين السابقين، لأنه مسَّ فكرة عميقة هي أقدمية الوجود فالصنم الذي يعبده مُحْدَثٌ من صنع الإنسان والمنطق يقتضى: أن يُعْبَدَ القديمُ المُحدِثُ، أما الشاعران الآخران فقد نظرا إلى خصائص الصنم الجامد الأبكم مقارنة مع الإنسان العاقل الناطق.

أما زيد بن عمرو بن نفيل ـ الذي كان تألّه في الجاهلية ـ فقد اتهم نفسه بأنه ذو عقل صغير عندما كان يعبد اللاّت والعزّى. يقول:

تركت اللات والعـزّى جميعاً كذلك يفعل الجلـدُ الصبُـور

فلا العزى أدين ولا أبنتيهـا ولا صَنَمَـيْ بنـي غنـم أزور

ولا هـبلاً أزور وكـان ربّـــا لنا في الدهر إذ حلمي صغير[١٣]

ومثله عمرو بن الجهني، الذي كان سادناً لصنم قبيلته ولكنه كان أول الثائرين عليه، فحطمه وخرج إلى المدينة معلناً إسلامه بين يدي الرسول صلى الله عليه وسلم وقال:

شهدت بأن الله حق وأنني لإلهة الأحجار أول تارك[١٤]

ومن الصور الدالة المعبّرة التي صورها الشعراء، سور تكسيرهم لأصنامهم وتحطيمها ويشير هذا الصنع إلى حسم الأمر بالنسبة للشاعر والتخلص من كل ما يمكن أن يذكره بآلهة الجاهلية، وإعلان انتصار الإيمان على الكفر، وهذا ما صنعه الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالأصنام عام الفتح، فعندما ظهر الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ يوم فتح مكة دخل المسجد والأصنام منصوبة حول الكعبة، فجعل يطعن بسنة قوسه في عيونها ووجوها ويقول: ﴿جَآءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ

﴿كَانَ زَهُوقًا﴾ ثم أمر بها فكفيت على وجوها ثم أخرجت من المسجد فأحرقت. وقال في ذلك راشد بن عبد الله السلمي:

قالت هلمَّ إلى الحديث فقلت لا ... يأبى الإله عليك والإسلامُ

أوما رأيت محمداً وقبيله ... بالفتح حين تكسر الأصنامُ

لرأيت نور الله أضحى ساطعاً ... والشرك يغشى وجهه الإظْلاَمُ(١٥)

وهذا مازن العضوية يعبّر عن مثل هذه التجربة حيث يقول عندما كسَّر صنمه "باجر" أجذاذا:

كسرت "باجر" أجذاذا وكان لنا ... ربًّا نطيفُ به ضلا بتضلالِ

يا راكبا بلّغن عمرا وإخوتها ... إنّي لمن قال ربّي "باجر" قالِ(١٦)

إن تضعيف الفعل "كسر" يشير بالقطع إلى مدى حنق الشاعر على صنمه "باجر" لا لأنه صنم فقط بل لأنه رمز للضلالة والابتعاد عن جادة الصواب "ربا نطيف به ضلاً بتضلال" ويؤكد ذلك كلمة "قَالِ" في آخر البيت الثاني التي من معانيها الكره والبغض، أما ذباب السعدي، فقد تعمَّد إهانة صنمه "فراضٍ" والنيل منه، فهشمه قطعا قطعا، يقول:

تبعتُ رسول الله إذ جاء بالهدى ... وخلَّفت "فرَّاضا" بدار هوان

شددتُ عليه شدَّة فتركتهُ ... كأنْ لم يكن والدهرُ ذو حدثان(١٧)

ويستخدم الشاعر "المستوغر" التعبير نفسه "شددت" للتعبير عن تكسيره للصنم "رُضى" فيقول:

ولقد شددت على رضا شدة ... فتركتها تلاً تنازع اسحما

ودعوت عبد الله في مكروهها ... ولمثل عبد الله يغشى المحرما(١٨)

وإذا كان الشعراء السابقون قد تركوا أصنامهم وتبرأوا منها أو كسروها وأهانوها، فإن حكيم أمية من بني سليم قد ترك قومه وهجر حلفاءه بني أمية بن عبد شمس ـ بعد أن كان فيهم شريفا مطاعا(١٩) ـ هجر كل أولئك وأسلم وجهه لله تعالى، يقول:

وهل قائل قولا من الحقّ قاعد ... عليه وهل غضبان للرشد مانعُ

وهل سيد ترجو العشيَّة نافع ... لأقصى الموالي والأقارب جامعُ

تبرأت إلا وجه من يملك الصبا ... وأهجركم ما دام مدل ونازعُ

وأسلمُ وجهي للإله ومنطقي ... ولو راعني من الصديق روائعُ(٢٠)

ومما عبَّر عنه الشعراء وصوروه أحسن تصوير، قصَّة إسلامهم وما اقترنت به من أحداث مثيرة ومشاعر صادقة، ومن ذلك ما قاله عمر بن الخطاب رضي الله عنه الله عنه ناظماً قصة إسلامه المشهورة شعرا مبرزاً المشهد المؤثر الذي لا شك أنه دفعه إلى الإسلام وهو مشهد أخته مع زوجها يقرآن القرآن حيث صفعها عمر .... وفي ذلك يقول:

وقد بدأنا فكذَّبنا فقال لنا ... صدقُ الحديث نبيّ عنده الخبرُ
وقد ظلمتُ ابنة الخطَّاب ثم هدى ... ربّي عشيَّة قالوا: قد صبا عمرُ
وقد ندمتُ على ما كان من زلل ... بظلمها حينَ تُتلى عندها السورُ
كما دعت ربَّها للعرش جاهدةً ... والدمع من عينها عجلانَ يبتدرُ
أيقنتُ أنَّ الذي تدعوه خالقها ... فكادَ يسبقُني من عبرة دورُ
فقلت أشهد أن الله خالقنا ... وأن أحمد فينا اليوم مشتهر
نبيُّ صدقٍ أتى بالحقّ من ثقة ... وافي الأمانة ما في عوده خورُ(٢١)

ومن ذلك ما قاله رافع بن عمير الطائي الذي كان لصاً في الجاهلية فأعلن إسلامه وقال:

سعيت إليه قد شمَّرت ثوبي ... عن الكعبين معتمداً ركوبي
فألفيت النبيّ يقول قولاً ... صدوقاً ليس بالقول الكذوب
يبشّرني بدين الحق حتى ... تبيّنت الشريعة للمنيب
وأبصرت الضياء يضيء حولي ... أمامي إن سعيت ومن جنوبي(٢٢)

ومثله قول أبي خيثمة:

ولما رأيت الناس في الدين نافقوا ... أتيت التي كانت أعفّ وأكرما
وبايعت باليمنى يدي لمحمد ... فلم أكتسب إثما ولم أغشَ محرما
تركت خضيناً في العريش وصرمة ... صفايا كراماً بسرها قد تحمَّما(٢٣)

ومن ذلك ما قاله سواد بن قارب، وكان كاهنا في الجاهلية:

أتاني نجيّي بعد هدءٍ ورقدةٍ ... ولم يكُ فيما قد بلوت بكاذب
ثلاث ليال قوله كلَّ ليلة ... أتاك رسولٌ من لؤيّ بن غالب
فرفَّعت عن ذيلي الإزار وشمَّرت ... بيَ العرمسُ الوجناءُ غبرُ السباسب
فأشهد أنَّ اللَّه لا رب غيرهُ ... وإنَّك مأمون على كلّ غائب(٢٤)

وهذا خنافر بن التوأم، يصور قصة إسلامه بعد أن دعاه صديقه الجنّ ـ كما يقول ـ وكان اسمه "شصار" إلى الإسلام وبعد أن أسلم شصار نفسه، يقول:

ألـم تـرَ أنَّ الله عــاد بفضلـــه | فأنقذ من لفح الـزخيخ خنافــرا
وكشَّف لـي عـن حجمـتيّ عمـاهمـا | وأوضح لي نهجي وقد كان داثـــرا
فأصبحتُ والإسلام حشوُ جوانحــي | وجانبت من أمست عن الحق نائـرا
دعـانـي شصـار للتـي لـو رفضتهـا | لأصليتُ جمراً من لظى الهون حائرا
فـكان مضلّـي مـن هُديتُ بفضلــه | فـللَّه مغوٍ عـاد بالـرُّشد آمـرا[٢٥]

إن أبيات سواد بن قارب وخنافر ابن التوأم، تكشفان إضافة إلى تصوير قصة إسلامهما عن شيء طريف مهم، إذ أن إسلامهما لم يكن نتيجة تأمل عقلي أو مراجعة داخلية، أو نظرة عميقة في خصائص أصنامهم، كما رأينا عند غيرهم من الشعراء، بل كان إسلامهما نتيجة دعوة جنّيهما، وهو اعتقاد جاهلي يقول إن لكل شاعر أو إنسان رئياً من الجنّ. وقولنا هذا لا يعني التشكيك في حقيقة وجود الجن كما أشار القرآن الكريم. وقد يكون هذا الصاحب من الجن من النوع الذي كان يعبده بعض العرب، فابن الكلبي يذكر أن بني مليح من خزاعة وهم رهط طلحة الطلحات كانوا يعبدون الجنّ وفيهم نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِيْنَ تَدْعُوْنَ مِنْ دُوْنِ اللّٰهِ عِبَادٌ أَمْثَـالُكُمْ﴾ (سورة الأعراف، الآية: ١٩٤).

أما حميد بن ثور الشاعر المخضرم المعروف، فيصوّر كيف حلَّ الإسلام قلبه، وملك فؤاده بعد أن كانت سلْمى قد رمت سهام حبِّها في قلبه. يقول[٢٦].

أصبح قلبي من سليمى مقصدا | فحمَّـل السهـم كلازا جلعــدا
ترى العليفـي عليهـا موكـدا | حتـى أرانـا ربُّنـا محـمــدا
يتلو من الله كتابـا مُـرشـدا | فلم نكذّب وخـررنا سجَّـــدا
نعطـي الزَّكاة ونقيم المسجــدا

ولم يصوّر الشعراء إسلامهم على أنه حادثة وقعت فحسب، وإنما تعدَّوا ذلك إلى تصوير أثر هذا الحدث في نفوسهم وجاء ذلك في مظهرين اثنين بارزين هما:

الأول: تصوير ما انتاب نفوسهم من أحاسيس الفرح والسرور عندما تذوَّقوا الإسلام، وتلذذوا طعمه الجديد، يقول قيس بن نشبة السلمي:

تـابعت دين محمد ورضيتـهُ | كـلَّ الرّضـا لأمـانتي ولـديني
ذاك امـرؤ نازعته قول العدا | وعقـــدت فيه يمينـهُ بيمينـي
قـد كنت آمله وأنظر دهـره | فـاللَّـه قــدَّر أنَّـه يهــدينــي[٢٧]

وكثيرا ما ترددّت عبارات الحمد والشكر لله لأنه هداهم إلى الدين الجديد، وأنقذهم من مصير مخيف، هو النار، يقول قروة بن نفاثة السلولي:

بأن الشباب فلم أحفل به بألا وأقبل الشيب والإسلام إقبالا

الحمد للّه إذ لم يأتني أجلي حتى اكتسيتُ من الإسلام سربالا(٢٨)

ويقول لبيد بن ربيعة:

إن تقوى ربنا خير نفلٍ وبإذن الله ريثي وعجل

أحمد الله فلا ندَّ له بيديه الخير ما شاء فعل

من هداه سبل الخير اهتدى ناعم البال ومن شاء أضل(٢٩)

وهذا النابغة الجعدي الشاعر المشهور يقول:

أتيت رسول الله إذ جاء بالهدى ويتلو كتابا كالمجرة نيِّرا

أقيم على التُّقوى وأرضى بفعله وكنت من النَّار المخوفة أوجرا(٣٠)

وتمتزج مشاعر إنشراح فؤاد حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه، بدموع الخوف والترقُّب، وذلك حينما يقول:

حمدتُ الله حين هدى فؤادي إلى الإسلام والدّين الحنيف

لدين جاء من ربٍّ عزيز خبير بالعباد لهم لطيف

إذا تُليت رسائلهُ علينا تهدَّر دمع ذي اللبّ الحصيف(٣١)

ومثله ما قاله سحيم عبد بني الحسحاس:

الحمد لله حمداً لا انقطاع له فليس إحسانه عنا بمقطوع(٣٢)

وكذا ما قاله لبيد:

حمدت الله والله الحميد ولله المؤثَّل والعديد

فإن الله نافلة تقاه وما يقتالها إلا الحميد(٣٣)

ونتيجة لطعم الإيمان الجديد وما أحسَّه الشعراء من فرح وسرور، دعوا قومهم أو ذويهم إلى الدخول في الإسلام، ونبذ آلهة الجاهلية. يقول شداد بن عارض مخاطباً قومه:

لا تنصروا اللات إن الله مهلكها وكيف ينصر من هو ليس ينتصر

إن التي حرّقت بالسدّ فاشتعلت ولم تقاتل لدى أحجارها هدر(٣٤)

ويقول العوام بن جهيل:

من مبلغ عنا شآمي قومنا ومن حلَّ بالأجراف سرّاً وجهرا

بأنا هدانا الله بالحق بعدما تهوَّد منا حائر وتنصرا

وأنا برئنا من يغوث وقرنه يعوق وتابعناك يا خيّر الورى(٣٥)

ومنهم من فارق بين حياته قبل إسلامه، حيث الضلالة ومظاهرها السلوكية كالمجون والخمر،وحياته بعد إسلامه حيث الرشد والهداية، يقول ابن جبلة الكلبي:

أجبتُ رسولَ اللّه إذ جاء بالهدى وأصبحتُ بعد الجحد باللّه أوجرا

وودَّعت لذَّات اللّقاح وقد أرى بها سدكا عمري وللّهو أصدرا

وآمنت باللّه العليّ مكانه وأصبحت للأوثان ما عشتُ منكرا(٣٦)

ومثله قول بكر بن جبلة إذ وصف نفسه بالجهل عندما كان كافراً: (٣٧)

أتيت رسول الله إذا جاء بالهدى فأصبحت بعد الجهل بالله مؤمنا

ويعبّر مازن الغضوية بشكل أوضح عن الصورة نفسها إذ يقول:

وكنت امرءا باللهو والخمر مولعاً شبابي إلى أن آذنَ الجسم بالنهج

فبدَّلني بالخمر خوفا وخشية وبالعهر إحصانا فحصَّن لي فرجي

فأصبحتُ همّي بالجهاد ونيّتي فللّه ما صومي وللّه ما حجّي(٣٨)

وقريب من هذا قول ضرار بن الأزور مخاطباً الرسول ـ صلى الله عليه وسلم:

خلعت القداح وعزف القيا ن والخمر أشربُها والثّمالا

وكرّى المحبّر في غمرة وجهدي على المشركين القتالا

وقالت جميلة بدّدتنا وطرّحت أهلك شتى شمالا

فيا ربّ أغبنن صفقتي فقد بعت أهلي ومالي بدالاً

فقال رسول صلى الله عليه وسلم: ما غُبنت صفقتك يا ضرار(٣٩).

أما المظهر الثاني، فهو إبداء مشاعر النَّدم والتحسُّر على ماكان منهم عندما كانوا بعيدين عن الإسلام، معرضين عنه تارة، وصادّين غيرهم، أو ملحقين الأذى بالمؤمنين بقول، أو بفعل، تارة أخرى. وغالبا ما تقترن مشاعر الندم وأحاسيس الحسرة، بالتوبة الصادقة ودعاء المغفرة، إن هذا المظهر يشير بصدق إلى أن هؤلاء الشعراء لم يصوّروا نفوسهم قوية فرحة بالإيمان فقط، وإنما صوَّروا نفوسهم ضعيفة سلبية عندما كانت تعيش الكفر بجميع أخلاقياته، وتصوير قوة النفس وضعفها من خصائص

الشعراء الإسلاميين على عكس الكثير من الشعراء الذين لا يصورون نفوسهم إلا في مواقف القوة، فيضفون عليها صفات مثالية خالية من أي نقص "فالشعر الإسلامي مثلما يعبّر بصدق وأمانة عن أمال الإنسان الخيرة يتناول كذلك نواحي الضعف والتردّد والانحراف فيه ليسلط الأضواء عليها لفهمها والشفاء منها"(٤٠).

وأكثر الشعراء الذين صوروا هذا المظهر الشاعر عبد الله بن الزبعري وهذا راجع إلى أنه كان من الشعراء الذين تصدوا للدعوة المحمدية وحاربوا الإسلام والمسلمين، وكان من أشد الناس على رسول صلى الله عليه وسلم في الجاهلية، وعلى أصحابه بلسانه ونفسه، وكان يناضل عن قريش ويهاجي المسلمين بل إنه كان يهجو(٤١) رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي ذلك خاطبه كعب بن مالك بقوله:

تبجّست تهجو رسول المليك　　قاتلك الله جلفاً لعينا(٤٢)

فلما أسلم راح يكثر من إبداء مشاعر الندم على ما بدر منه عندما كان في معسكر الكفار يقول في إحدى قصائده مخاطبا الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومعتذراً إليه(٤٣).

يا خير من حملت على أوصالها　　عيرانة سرج اليدين غشومُ
إني لمعتذر إليك من الذي　　أسديت إذ أنا في الضلال أهيمُ
أيام تأمرني بأغوى خطة　　سهم وتأمرني بها مخزومُ
وأمدُّ أسباب الردى ويقودني　　أمر الغواة وأمرهم مشؤومُ
فاغفر فدى لك والداي كلاهما　　زللي فإنك راحم مرحومُ

فالقصيدة تشير إلى أن قائلها في بداية إسلامه، وتكشف عدم تعمق معاني الإيمان وجوانب العقيدة المختلفة فهو عندما يتوب، يتوب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، وعندما يطلب المغفرة يطلبها من الرسول الكريم، ونحن نعلم أن التوبة والمغفرة خاصة بالله سبحانه وتعالى. وتتأكد لدينا هذه الفكرة إذا وازنا بين الأبيات السابقة وأبيات قالها عمرو بن الجموح في طلب المغفرة من الله والتوبة إليه:

أتوب إلى الله سبحانه　　واستغفر الله من ناره
وأُثني عليه بآلائه　　بإعلان قلبي وإسراره(٤٤)

أو مثل قول عبد الله بن رواحة في التوبة وطلب المغفرة حيث يقول:

لكنّني أسأل الرحمن مغفرة　　وضربة ذات فرغ تقذف الزبدَا(٤٥)

وللشاعر نفسه أي عبد الله بن الزبعرى، مقطوعة تكشف خلجات نفسه، وتصوّر همومه وندمه بمستوى أعمق من القصيدة الأولى يقول في تلك المقطوعة.

سرت الهموم بمنزل السم إذ كنّ بين الجلد والعظم
ندما على ما كان من زللٍ إذ كنت في فتن من الإثم
حيرانَ يعمه في ضلالته مستورداً لشرائع الظلم
فاليوم آمن بعد قوّته عظمي وآمن بعده لحمي(٤٦)

أما سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، فيستذكر قتاله في صفوف المشركين، للرسول صلى الله عليه وسلم، ويندم على ذلك أشد الندم حيث يقول مشبها نفسه بالحيران الذي يسير في ليل مظلم:

لعمرك إني يوم أحمل راية لتغلب خيل اللات خيل محمد
لكالمدلج الحيران أظلم ليله فهذا أو إني حين أهدى أو أهتدي(٤٧)

ويقترن الندم عند عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ بالدمع المنهدر من عينيه يقول:

وقد ندمت على ما كان من زلل بظلمها حين تُتلى عندها السور
أيقنت أن الذي تدعوه خالقها فكاد يسبقني من عبرة دورُ(٤٨)

أما خصائص هذه الأشعار الموضوعية والفنية. فأهمها: صدق التجربة إذ عبر الشعراء عن مكنونات نفوسهم بصدق غير متناه في جميع حالاتها، في قوتها، وفي حيرتها، وفي اضطرابها، وفي ضعفها. كما عبَّروا عن توبتهم وندمهم. فانطبعت تلك الأشعار بطابع نفسي ذي صلة حميمة بعالم الشعراء الداخلي، ولذلك كثرت الألفاظ ذات المدلولات النفسية، مثل: النفس، كقول خزاعي بن عبد نهم: "فقلت لنفسي ..." أو القلب، مثل قول حميد بن ثور: "أصبح قلبي ..." أو الفؤاد، مثل قول حمزة: "... حين هدى فؤادي ..." أو الجوانح مثل قول خنافر بن السؤام: "فأصبحت والإسلام حشو جوانحي ..." أو النية مثل قول مازن العضوية: "فأصبحت همّي بالجهاد ونيّتي ..." وكثرت كذلك الألفاظ التي تصوّر مشاعر الشعراء وعواطفهم عندما دخلوا الإسلام وتركوا الكفر، مثل الحب، والكره، والقلى، أو الرضا، أو القبول أو الإباء. مثل قول قيس السلمي: "... ورضيته كل الرضا" وقول عمرو بن الجموح مخاطباً صنمه: "أفٍّ للقاك ...". أو قول خزاعي: "إني لمن ... قَالِ" أو الحيرة، كقول عبد الله بن الزبعرى: "حيران يعمه ...".

ومن أهم خصائص تلك الأشعار: العفوية والبساطة، إذ أن تلك الأشعار بنات لحظاتها فهي أقرب إلى الخاطرة التي تنساب من النفس دون تكلف، فباعثها داخلي ذاتي لا حظّ فيه لأي مؤثر خارج عن نفس الشاعر وأحاسيسه وانسحبت البساطة والعفوية على الألفاظ التي انطبعت بطابع

السهولة واليسر وخلت من الألفاظ الخشنة الوعرة، وهي خاصية الشعر الإسلامي بعامة وتلك الأشعار بخاصة. فكثرت ألفاظ مثل: "لله، إلها، العلي، حمدتُ، الواهب، الرزاق، دين محمد، إله السماء، الماجد، أربّ، نور الله، عبد الله، الشرك، الإسلام، الهدى، الضلال، العرش، الحق، الرشد، العفو، مضلّي، هديت، منجدا، الزكاة، ديني، يميني، سبل الخير، تقوى ربنا، إثما وهكذا ...".

وترجع هذه الظاهرة بالتأكيد إلى أن موضوع الأشعار موضوع ديني، قريب إلى النفس، فامتازات بهذه السهولة الواضحة، وهذا يتفق مع رأي الأستاذ العقاد الذي يقم علاقة كبيرة بين ألفاظ الشعر من حيث السهولة أو الصعوبة، والموضوع الذي ينظم الشاعر فيه(٤٩).

ومن الظواهر البارزة في تلك الأشعار كثرة استخدام الشعراء لضمير الأنا المفرد للتعبير عن تجربتهم، على عكس الشعراء الإسلاميين في مرحلة نضج إسلامهم وتعمقه في نفوسهم واستقرار الدولة الإسلامية، وهي مرحلة انصهرت فيها ذات الفرد في الجماعة واندغمت معها، فشاع التعبير بضمير الجماعة عن أحاسيس الفرد وعواطفه كقول حسان بن ثابت(٥٠).

وأكرمنا الله الذي ليس غيره .....

بأن لقاءنا إن حان يوم .....

وقول كعب بن مالك(٥١)

نلقى العدو بفخمة ملمومة .....

ونعد للأعداء كل مقلص .....

مجالدنا عن ديننا .....

أما في أشعار اللحظات الأولى كما أطلقنا عليها، فكانت تجارب الشعراء في بدايتها، ولم تصل إلى مرحلة النضج، ولم تكن ذواتهم قد اندمغت بالجماعة، لأنهم ما زالوا في بداية إسلامهم فكان الضمير الذي يلائم التعبير عن التجارب الخاصة ضمير الأنا، لأن هذه التجربة خاصة بالقائل الذي قد لا يشركه شعراء كثيرون فيها، ولعل مما يؤكد هذا أن مازن العضوية عندما صوّر علاقته بالآلهة الجاهلية، وهي تجربة عامة استخدم ضمير الجماعة بقوله: "... وكان لنا ... ربا نطيف به ..." وعندما صوّر إيمانه وما صنعه بصنمه استخدم ضمير الذات لأن ذلك الفعل قام به وحده، يقول: "كسرت باجر أجذاذا ...". ويقول: "إني لمن قال ربي باجر قال".

أما أكثر الأسباب البلاغية بروزاً في تلك الأشعار فهي: التشبيه والمقابلة، وكلاهما نابعان من تجربة الشعراء، لذلك جاءا متلازمين مقترنين لأنهما منسجمان مع عواطف الشعراء وأحاسيسهم، التي صدروا عنها، وهذا أمر طبيعي لشعراء أكثر ما عبّروا عنه، حالهم عندما كانوا كفّارا، وحالهم عندما

أصبحوا مسلمين، وهذان البعدان يناسبهما التشبيه، تشبيه نفوسهم والمفارقة بين حياتهم الأولى وحياتهم الثانية. يقول ذباب السعدي:

تبعت رسول الله إذ جاء بالهدى وخلفت فـرّاضا بدار هـوان(٥٢)

ويقول عمر بن الجهمي:

شهـدت بـأن الله حـق وأننـي لآلـهة الأحجـار أول تـارك(٥٣)

ويقول خنافر بن التوأم:

فأصبحت والإسلام حشو جوانحي وجانبت من أمست عن الحق نائرا(٥٤).

ويقول سفيان بن الحارث بن عبد المطلب:

لكالمـدلج الحيـران أظلـم ليلـه فهذا أو إني جين أهدي أو اهتـدي(٥٥)

وجاءت تلك الأشعار على شكل مقطوعات شعرية لاتتجاوز بضعة أبيات في معظمها، وذلك راجع إلى أنّ قائليها لم يكونوا معنيين كثيراً بحشد الصور بقدر ما كانوا مهتمين بتصوير نفوسهم بأبسط صورة، وأقل تعبير وبخاصة أن فيهم كثيرا ليسوا من الشعراء البارزين، لم يكن همهم الأول والأخير أن يذيع صيتهم الشعري في الأسواق والمجالس الأدبية، ولا عند النقاد والمهتمين بالشعر، كما كان الحال في الشعر الجاهلي، والخاصية السابقة يمكن أن تكون خاصية للشعر الإسلامي في فترة النبوّة والخلفاء الراشدين.

هـــوامش

١- كانت المحاولة الأولى بعنوان "شعر الغزل العذري في ضوء نظرية الأدب الإسلامي" وقد نشرت في مجلة **الدراسات الإسلامية**، إسلام آباد ـ الباكستان، مجلد ٢٨، عدد ٣، سنة ١٩٩٣م، والثانية، "شعر النقائض في العصر الأموي في ضوء نظرية الأدب الإسلامي" وقد نشرت في **مجلة المعهد العالمي للدراسات الإسلامية والعربية**، أمريكا، إنديانا، مجلد ٩، جزء ١، سنة ١٩٩٢م.

٢- **كتاب الأصنام**، ابن السائب الكلبي، تحقيق الأستاذ أحمد زكي، القاهرة، الدار القومية للطباعة والنشر، ١٩٢٤م، ص ٣٥.

٣- المصدر السابق، ص ٦١.

٤- المصدر السابق، ص ٣٧.

٥- المصدر السابق، ص ٤١.

٦- المصدر السابق، ص ٦١.

٧- "الشعر ومكانته في نظر الإسلام" محمد أنوار الحق العظيمي، مجلة الدراسات الإسلامية، المجلد ٢٨، عدد ٣، سنة ١٩٩٣م، ص ٨٤.

٨- شعر العقيدة في صدر الإسلام، أيهم القيسي، بيروت، عالم الكتب، مكتبة النهضة، ١٩٨٦م، ص ١٣٧.

٩- الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، مصر المكتبة التجارية الكبرى، ١٩٣٩م، ٢٢٤/١، شعر الدعوة الإسلامية في عهد النبوّة والخلفاء الراشدين، جمع وتحقيق عبد الله الحامد، الرياض، ١٩٧١م، ص ٣٩.

١٠- شرح شواهد المغني، السيوطي، تحقيق محمد الشنقيطي، مصر لجنة التراث العربي، ١٣٨٦هـ، ص ٣١٧، وشعر الدعوة الإسلامية في عهد النبوّة والخلفاء الراشدين، ص ٣٨.

١١- الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، ٢٤٥/١، وسيرة ابن هشام، مصر، المطبعة الجمالية، ١٩١٤م، ٢٨٠/١، وشعر الدعوة الإسلامية، عبد الله الحامد، ص ٤١.

١٣- الأصنام، الكلبي، ص ٢٢.

١٤- الطبقات الكبرى، ابن سعد، بيروت، دار صادر، ١٩٥٧م، ج ١، ق ٦٨٢، شعر الدعوة الإسلامية، ص ١٠٩.

١٥- الأصنام، بيروت، ١٩٦٦م، ص ٣١.

١٦- البداية والنهاية، بيروت،١٩٦٦م، ٣٣٧/٢، وشعر الدعوة الإسلامية في عهد النبوّة والخلفاء الراشدين، ص ٤٣.

١٧- الطبقات الكبرى، ابن سعد، ٣٤٢/١.

١٨- الأصنام، ص ٣٠.

١٩- في أدب الإسلام، محمد عثمان علي، ص ٣٧.

٢٠- سيرة ابن هشام، ٢٥٨/١.

٢١- الروض الأنف، السهيلي، مصر، ١٩١٤م، ٢١٨/١، شعر الدعوة الإسلامية في عهد النبوّة والخلفاء الراشدين، ص ٦٥.

٢٢- الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبد البر، مصر، ١٩٣٩م، ٤٨٥/١.

٢٣- الإصابة في تمييز الصحابة، ٣٣٣/٣.

٢٤- الروض الأنف، ١٤٠/١، الإصابة في تمييز الصحابة، ٩٥/٢.

٢٥- الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، ٤٥٧/١.

٢٦- ديوان حميد بن ثور الهلالي، تحقيق عبد العزيز الميمني، دار الكتب المصرية، ١٩٥١م، ٧٨/٧٧.

٢٧- الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، ٢٥٠/٣.

٢٨- الاستيعاب، ابن عبد البر، ٢٦٠/٣، الشعر والشعراء، ابن قتيبة، تحقيق أحمد شاكر، القاهرة، دار إحياء الكتب العربية، ١٣٦٦هـ، ٢٣٢/١.

٢٩- ديوان لبيد، ابن ربيعة، ص ١٣٩.

٣٠- ديوان النابغة الجعدي، جمع عبد العزيز رباح، دمشق، المكتب الإسلامي، ١٩٦٤م، ص ٧٣، ٧٤.

٣١- الروض الأنف، ١٨٦/١، شعر الدعوة الإسلامية، ص ٥٧.

٣٢- ديوان سحيم، عبد بني الحسحاس، تحقيق عبد العزيز الميمني، دار الكتب المصرية، ١٩٥١م، ص ٦٨.

٣٣- ديوان لبيد، ص ٤٤.

٣٤- الأصنام، ص ١٧، شعر الدعوة الإسلامية، ص ٣٦.

٣٥- الإصابة في تمييز الصحابة، ٤١/٣.

٣٦- الطبقات الكبرى، ٣٣٤/١، شعر الدعوة الإسلامية، ص ٤٩٩.

٣٧- الإصابة في تمييز الصحابة، ١٦٧/١، شعر الدعوة الإسلامية، ص ٥٣.

٣٨- الاستيعاب، ٤٤٧/١، ومثله قول سويد بن عدي:

تركت الشعر واستبدلت منه إذا داعي منادي الصبح قاما

كتاب الله ليس له شريك و ودعت المدامة والندامى

انظر: الإصابة، ١١٦/٢.

٣٩- الاستيعاب، ٧٤٧/٢.

٤٠- مدخل إلى الأدب الإسلامي، نجيب الكيلاني، قطر، المطابع الدوحة الحديثة، ١٩٧٨م، ص ٣٤.

٤١- في أدب الإسلام، محمد عثمان علي، بيروت، دار الأوزاعي، ط ١، ١٩٨٤م، ص ٢٣٩.

٤٢- ديوان كعب بن مالك، ص ٢٧٧.

٤٣- شعر عبد الله بن الزبعرى، جمع وتحقيق: يحيى الجبوري، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط ٢، ١٩٨١م، ص ٤٥.

٤٤- الإصابة في تمييز الصحابة، ٥٢٣/٢.

٤٥- ديوان عبد الله بن رواحة، تحقيق وليد قصاب، ط ٢، الأردن، دار الضياء، ١٩٨٨م، ص ١٤٧.

٤٦- شعر عبد الله بن الزبعرى، ص ٥١.

٤٧- سيرة ابن هشام، ٢٦٨/٢، شعر الدعوة الإسلامية، ص ٨٩.

٤٨- شعر الدعوة الإسلامية، ص ٦٥.

٤٩- أشتات مجتمعات في اللغة والأدب، عباس محمود العقاد، القاهرة، دار المعارف، ط ٤، ١٩٧٦م، ص ٣٦.

٥٠- ديوان حسان بن ثابت، تحقيق سيّد حنفي، طبعة القاهرة، ١٩٢٤م، ص ٧٣، ١٤١، ٣٧٢.

٥١- ديوان كعب بن مالك، ص ٢٢٣، ٢٤٧.

٥٢- الطبقات الكبرى، ابن سعد، ٣٤٢/١.

٥٣- شعر الدعوة الإسلامية، ص ١٠٩.

٥٤- الإصابة في تمييز الصحابة، ٤٥٧/١.

٥٥- سيرة ابن هشام، ٢٦٨/٢، شعر الدعوة الإسلامية، ص ٨٩.

* * * *